

فصل خامس

قرصان القارورة

لعلكم تتفقون معي أن (آدم) راح ينزلق أكثر فأكثر في متاهات (هاجر)، وينقاد بلا حذر إلى نزواته معها. في كل كلمة تلفظها، تجتمع مفاتن ومغريات نساء عصور عاشتها.

دون أن يخبرني بهدفه الخفي طلب مني أن أعثر له على حفلة مناسبة يمكن أن يرقص بها مع زوجته (مارلين)، وتعهده بدفع بطاقة دخولي. أتذكر انه كان مساء سبت ربيعي. بعد أن تعشينا معاً في بيته وبرفقة زوجته، أحتسيت وحدي نصف قنينة نبيذ ونصفها الآخر حملته لي (مارلين) في حقيبتها. ثم هيأنا لفافة حشيش لندخنها أنا وآدم في الحفلة. اما (مارلين) فأنها لم تكن من مفضلي المسكرات، لكنها كانت مبتهجة معنا بطفولة واضحة. أخبرتني انها منذ فترة طويلة لم تذهب إلى حفلة راقصة. طالما حسدت (آدم) في سري على زوجته، رغم عدم رغبتني في الزواج، إطلاقاً. أكثر ما يجذب فيها، عيون خضراء تشعة طيبة، وخصال إنسانية ترغم رجلاً مثلي على ان يعاملها برقة ويرتاح لطلب عون منها، وإن كان لا يحتاج إليه.

عندما وصلنا إلى قاعة (البالاديوم) كانت الساعة تقارب العاشرة مساء. كانت حفلة صاحبة بشباب وموسيقى جاز حديث. ما إن جلسنا حتى همس (آدم) في أذني :

- "عندي مفاجأة، تعال وياي.."

لم أكن أدرك ما يبتغي. الح بالعثور على زاوية قريبة مستورة. حينئذ فقط انتبهت إلى الكيس الذي كان يحمله. من باب يحاذي باب المرقص سعدنا سلاالم عمارة خالية حتى الطابق الثالث. هناك أخرج القارورة من الكيس وهو يبتسم بطريقة شيطانية صار يتقنها عندما يسكر. اطلق سراح حوريته وألبسها ثوبها وحذائها ثم لف فوطة حول رأسها فتدلت كراكيش سوداء حول جبهتها فبدت كأميرة جنوبية.

بعد أن قمت بتقديم (هاجر) إلى (مارلين) على أنها إحدى صديقاتي، حرصت على مرافقتها وهي تتهدى بقامة شامخة وخطوات ملكية ونيدة جعلت رؤوس الحضور تلتفت إليها. كنت اتساءل عما يجول في دواخلهما: هل هي التي أقتعه بقاء زوجته ام هو أراد إقحامها في تفاصيل اجتماعية لم تثر اهتمامها من قبل.. لماذا يجب أن تتعرف بـ (مارلين)؟ لم تذكر في جميع حكاياتها أنها رغبت يوماً في التقاء زوجة أحد عشاقها. ايكون هذا دليلاً على رغبة في الخروج عن سلوك تعودت عليه منذ القدم؟ لعلها خطوة أولى نحو خطوات اعمق في درب مجهول العواقب. أليس من المنطقي أن حياتها ستغدو صعبة لو أنها عاشت تفاصيل حياتنا اليومية؟ ستتهبط من علياء وجود خالد إلى تفاصيل دنيا محبوكة من غيرة وتضحية ومنافسة وصدق ونفاق ومراوغة ورغبات امتلاك.. وهنا يكمن الخطر، لأنها ستستحيل حينذاك إلى امرأة أرضية تهتم بالعادي وتمارس من خلاله لذة

وجودها. ليتها تعلم أن ما تتضمنه حياتنا من شعارات عظيمة ومبادئ واحلام كبرى ما هي في الأساس إلا أقمشة براقحة محاكاة بخيوط من تفاصيل يومية عادية ومشاعر خفية ونزوات إنسانية! لو أنها تدري أن طبخات الحب والوفاء يتحسن طعمها كلما أضيفت إليها توابل غيرة وكره وامتلاك. في أشد الأحقاد ثمة نكهة حُب، وفي أسلم المبادئ ثمة نكهة حرب، وفي أقدس المشاعر وأظهرها ثمة نكهة مجون وشهوة..

* * *

موسيقى متصاعدة من الأرجاء سارعت في تصاعد مفعول الثمالة. كانت القاعة تدور والجدار ينشق عن فضاء بلا افق. كأن الجميع يرقصون على كوكب طانش يهيم في كون. اصابني خوف لذيذ من السقوط في فراغ. رأيت (هاجر) وقد اصابها دوار النشوة ، تقترب من باحة الرقص ونظراتها تنساب بخفر، تارة ناحيتي، وتارة ناحية (آدم رمارلين). إنها ملكة ترقب أتباعها. كنت ممثلنا بتردد غير عقلاني من الاقتراب منها. لا ادري كيف أفسر هذا! كأنني لسبب غامض خجلت من (مارلين). وقعت فريسة تأنيب ضمير. لعل علاقتي مع (هاجر) قربتني إلى (مارلين). لست على يقين.

كنت واقفاً عند ناصية مرتفعة قليلا، تجعلني أشرف على الراقصين، وأتلقى أصوات مكبرات الصوت بانسجام ووضوح. عينا (مارلين) كانتا مفتوحتين على سعتهما وتشعان خضرة وحباً نادراً كفيلا أن يمنح زوجها السعادة ويغنيه عن أية امرأة.. لكنه مثلي، في روحه وجسده ثمة ينابيع شهوة فياضة تكفي لارواء اكبر الواحات والفيض نحو واحات اخرى. في الماضي كانت ينابيع لذات (آدم) تفيض عن واحة زوجته وتسيل ضائعة في صحارى من السؤال والغموض. لكن (إمرأة القارورة) اتت لتجمع في مجراها فيضانه وتصنع نهرا يسقي مدنا واقواما ويهيم في بحار وبحار.

بدأت (هاجر) تنساب ببطء ثعباني مع موسيقى زنجية متصاعدة. راحت بالتدرج تفك لجام اعضائها وتدعها تتضوع بأنوار وانغام ملونة. بدت تماثل بحركاتها نافورة البحيرة، حيث يعلو الماء رقراقا بطيئا واطنا ثم ينمو ويتصاعد ويشد مندفعاً حتى الاعالي. انه مشهد ولادة ونمو..

عينا (آدم) كانتا ترقبان (هاجر) وهو يراقص (مارلين) التي بان قليلا انتفاخ بطنها رغم ثوبها الفضفاض، متمائلة بحذر خشية على جنين ما تجاوز بعد شهره الثالث. كان جسدها يتراقص دون ابتذال ويعنف انيق كأمواج هادئة متناغمة. ياترى هل تصدق لو قيل لها إن جنينها ما زرعت بذرتة في بطنها إلا بفضل هذه المرأة التي اراقصها! بخصبها الخالد منحت أمانا كلياً لـ (آدم) واطلقت عنان شهوات روح ملجومة وجعلت بذرات خصبه تنساب بخدر لذة حقيقية كان ينتظرها طيلة عمره.

حتى انا بدأت تراودني في الفترة الاخيرة فكرة الانجاب. اشد ما امقت في الحياة دور الابوة. لكني في احلام يقظتي كنت انساق الى رغبة عابثة اود بلهفة لو انفذها:

ان امنح بذوري الى (بنك الاخصاب) ليكون لي ابناء من عدد لا يحصى من النساء. يصحبنى حلمي الى ما بعد عدة اعوام، حين اكون اشيب وقورا، ارى فجأة امامي عشرات الابناء يتصلون بي ليعلنوا لي اني ابوهم البيولوجي! سأكون سعيدا لأنني زرعت روعي في اناس سيخلفوني ويحافظون على ديمومة نسلي. سأتمتع بتبعيتهم لي وشعوري بأنني ابوهم من دون ان اضطر يوما الى ممارسة دور مقيت.

الا تكون إذن غريزة الابوة تعبيراً عن رغبة الجسد في ان يكون أزلها وسرمديا مثل الروح؟ أكون الخالدون هم بغير خصب، ووحدها الأجساد الفانية تحمل خصبها في داخلها لأنها بالخصب تكافح موتها؟ لعل الجسد يمضي اعوامه وهو يشقى من اجل ان يكون خالدا ومطلقا مثل الروح، وما الموت إلا محاولة الجسد ترك المكان لجسد اعلى واسمى واقرب الى الروح؟ هل هذا يعني ان سنة الوجود الواقعي هذه الحركة الأزلية من اجل بلوغ الوجود الأسمى والأرقى؟ أليس الإنسان إلا مرحلة عليا في هذا الوجود المحسوس لأنه هو وحده من شعر وفكر وتمتع بخيال واقرب من ذلك الوجود الأعلى اللا محسوس؟ هل سيؤدي بنا الرقي البيولوجي وتناسلنا لحقب وحقب حتى تبلغ اجسادنا كليا ذلك الوجود الاعلى المطلق؟ حينها سنصبح خالدين نتناسل ونتناسل من دون موت ولا ولادة!

انتبهت الى ان كل واحد منا، نحن الاربعة، كان نظره مشتتا بين الثلاثة الآخرين. كنت اشاهد(مارلين) و(هاجر) و(آدم) كيف تستحيل اشكالهم الى تكوينات هلامية من ضوء ودخان وموسيقى. كنا بحركاتنا نخوض حوارا حنوناً وهمجياً، مفعماً بأسى وعتاب وصراع رغبات. صارت كل حركة من جسد احدنا استجابة لحركة الآخرين. (هاجر) قد توسطت الباحة تحت ضوء ابيض يشع بهالة بنفسجية. اسبلت جفنيها الى الأرض، ورفعت ذراعيها، وشرعت تتمايل بحركة افعوانية جعلت من نهديها وردفيها في عريضة للانعقاد من ثوبها الشفاف. عند كل حركة تبديها كانت ترتفع عن الأرض وعيناها تبرقان بضوء خلاب يغمر الفضاء. كما لو في حلم، أخذ الأذان يصدح في وسط إيقاعات افريقية سنغالية :

- "الله أكبر.. الله أكبر... حي... "

وامتد أنين بلال حبشي عبر قرع طبول وأنغام قيثار إلكتروني يستنجد بجليل جبار ليعين الإنسان في حيرته الأبدية. بدأ ينبجس أمامي مشهد غرائبي :

كأننا في غابة وسط قوم من حُقب غابرة، نمارس طقوس عبادتنا في حضرة آلهة من ضوء وموسيقى. كان جسمي يتفتت ويفقد وزنه.. يذوب وينساب مع أجساد الآخرين. نستحيل بالتدريج إلى خلايا تنتثر في الغابة. مثل طيور نحوم أسراباً حول (هاجر) ونحط على جسدها. نخترق اللحم، ونسبح في الدم، ونذوب في كون من ماء ونور. صارت (هاجر) بحيرة، ونحن صرنا ثلاثة أنهار نرفد فيها، والراقصون صاروا غدراناً تصب فينا..

* * *

وثبت من صفتي فجأة على صوت (آدم) كان يخضني وهو يسألني بصراخ مخنوق بضجيج :

- "هاجر.. ما شفت هاجر..؟"

فتشنا عنها في الأنحاء من دون العثور على أثر. إذن لقد صدقت مخاوفي. ها هي تمضي بعيدا في التمرد على طباعها. يقيناً ان غيرتها قد دفعتها إلى هذه النزوة. فكرنا أنها انسأقت لثملها وراحت تتسكع في المدينة. انطلقنا إلى البحث عنها بعد أن بعثنا (مارلين) في تكسي إلى الدار. كنت وراء (آدم) أتبعه وهو يحوم في عتمة ما بعد منتصف الليل بين الأزقة وعلى ضفاف نهر (الرون). كان مثل معتوه يلهث ويثب هنا وهناك محدقا في الزوايا المظلمة وبين وجوه النساء بحثاً عن حوريبته. حركاته توحى أنه في ساعة مصيبته هذه يتمتع بحواس لاقطة تفوق المعتاد، وأن غرائز الحياة جميعها كانت في أقصى نشاطها لتلقي اية إشارة.

كانت السماء مكفهرة بغيوم سوداء تبعثرها ريح مبللة برذاذ مطر. اتكأ على السياج، وترك نظراته تغيب في أعماق المياه وتنحدر معها جنوباً نحو مصبها في البحر. كان يدمدم هامساً يسأل السماء ويشكو لها بهمهمات غير واضحة. تهالك على مقعد بعد أن أعياه تعب وبرد رقلق. جلس واضعاً رأسه بين ركبتيه وذراعيه وأجهش بنحيب مكتوم. كان الشارع مضاءً بمصابيح فندق (هيلتون) ويضج بعصف ريح وصخب مكتوم قادم من علب ليل مختبئة.

كلما اقتربت من آدم، كنت أميز بعض كلمات مهمته. لعلي كنت أتوهم سماعي لمفردات تاريخية كثيرة، أسماء شعوب قديمة وحروب وملوك. بل إنه ردد أسماء سبق لي أن عرفتها في حيوات عشتها مع (امرأة القارورة). بدا بهينته الكسيرة كتمثال مهمل. كان العرق ينفذ منه غزيراً حاراً ناضحاً بأحاسيس خسارة وضعف وحيرة. امتدت يدي لتمسد شعره وتنساب على كتفه. هل حقيقة اني كنت أشفق عليه وابتغي مساعدته أم اني كنت اشفق على نفسي وأبتغي إنقاذها؟

مع الاستغراق في خدر انتشر في أوصالنا، كانت أصوات صخب تتضح أكثر فأكثر. آنذاك، أدق الرادارات مهما جهدت، لن تستطيع ان تلتقط سوى خليط عجيب من أصوات متناثرة من حشد نوافذ وأبواب وسطوح وجحور: أحاديث وشخرات وآهات وضحكات وصفعات وأغنيات وزجاجات تتكسر وسيارات مارقة وصرير حشرات، كل هذه الأصوات كانت تمتزج وتذوب في صخب أمواج البحيرة الهادرة لتشكل صوتاً كونياً واحداً. لكن (آدم) قام فجأة كأن نداء خفياً قد جذبته. انحدر نحو اليمين حيث تتوغل شبه جزيرة صغيرة في الماء (مسبح باكي). كلما توغلنا في المكان بدت تتوضح من بعيد نغمات غناء يصدر ممتزجا بضجيج الامواج. بلغنا اشجار اربعة عملاقة منتصبه وحيدة على الجرف، طالما بدت من بعيد مثل زوجي عشاق متوحدين يمضيان وقتهما بتأمل المياه..

هناك وجدنا هاجر..!

لم تبد الدهشة عليها ولا على (آدم) كأنهما كانا على موعد. كانت بثوبها المرقط واقفة تحت خيمة الأشجار، مزروعة في هذا المكان منذ القدم. كانت تصدح بلحن عراقي شجي لكنه بلغة غريبة.. ربما كانت سومرية أو أكادية.. لا أدري. كانت عيناها ترمقان أفقا مظلماً، ويرتشف صدرها ريحاً عابقة بروائح كائنات ترسبت في قاع البحيرة عبر التاريخ. كم من أقوام شربت واغتسلت في مياهها.. وكم من دماء حروب سالت فيها! كم من أرواح يائسة انتحرت فيها.. وكم من همسات عشق ومداعبات ترطبت بموجاتها! ستظل مانحة للحياة بمياهها النقية المتألقة المغربية بأكلها وشربها والغوص فيها.

من دون أن تكلمنا أخذتنا بين ذراعيها. في اللحظة التي وضع فيها (آدم) كفه على صدرها وضعت أنا كفي عليه.. وعندما انسابت شفتاه على شفتيها، انسابت شفاتي أيضاً.. وعندما استلقى معها على رمال الشاطئ تحت الأشجار الشامخة، كنت أنا كذلك أستلقي معها ويلتحم جسدي بجسدها واغور في عالم عتيق تحييه وتخلقه ارتعاشاتنا الراقصة في احتفال الوجود.

* * *

وجدت نفسي غلاماً أعيش في قرية ضائعة بين أهوار الجنوب. كان أبي تاجر حبوب تقياً، يمضي وقته في عبادة أصنام جلبها من (بابل)، عاصمة قومي البعيدة المرتمية على الفرات. كان جلفاً لا يفكر إلا بتجارته وبالانتقام من العار الذي جلبته له أمي. أتذكر أن عمري كان لا يتجاوز ثلاثة أعوام عندما دخل علينا أبي في ليلة حالكة. كنت مستلقياً في حضنها وهي تهدهني بحكايات جدي الذي جال الأرض بحثاً عن أكسير الخلود. سوف لن أنسى أبداً صورة تلك الابتسامة الحنونة والاندھاشة الساذجة التي ارتسمت على وجه أمي وهي تستقبل خنجر أبي. كان يصرخ بوحشية وبنون :

- "خائنة.. خائنة.."

امسكني من قدمي وسحبني عنها بعنف. ارتمى عليها، خلع عنها فوطتها السوداء وجرها من قصبيتها الحنيتين. أتذكر جيداً أنها كانت تنظر إليه وعلى وجهها ابتسامة مندهشة، عندما كان خنجره الكلداني يحفر جرحه على عنقها البض الأبيض.

ما ظل يحيرني طيلة عمري أنها عندما كانت تموت والدماء تغور منها، لم تكن غاضبة ولا محتجة، إنما نظرت إلي بهيئة حزينة عاتبة، كأنها تقول :

- "انظر إلى أبيك.. يكافح ويجهد نفسه لحد أنه يضحى بي من أجلك.. كل هذا من أجلك يا ولدي.."

أمضيت الأعوام بعد مقتل أمي، وأنا في خضوع مطلق لإرادة أبي. لم افقه أي شيء عن قصة خيانتها. لم اسمع أي تعليق على الموضوع مرة أخرى أبداً. عشت مع زوجته الجديدة. كانت أسيرة أرمنية، اشتراها من (أشور) مدينة أخوالي. كان أبي مستعداً لعمل المستحيل ليتخلص من ذكرى أمي. كان يرغب في أن يمسح عن الوجود أي أثر يذكره بها. لكنني كنت ذلك الأثر الوحيد الذي لم يساعده ضميره على أن يتخلى عنه. كنت رمز

خيبته ونقمته، وصار بدني ارضاً خربة يحرق فيها أقدار عمره. رغم عطف زوجته عليّ ومحاولتها ان تعاملني مثل أخوتي الذين انجبتهم، إلا انها ما كانت تستطيع حمايتي دوماً من عنف لسانه وغلاظة قبضتيه. عند اية بادرة خطأ كان يرجمني بجميع شتائم قومي ويضربني بعصاه المنقعة بالملح، ثم يأخذني دفعا ليسقطني في النهر وهو يدعو عليّ الانقلاب في عوالم سفلى.

رفض أن أتعلم القراءة والكتابة. كانت العادة أن يقوم أحد الكهان بتبني الطفل لتعليمه القراءة والكتابة والدين، لكن أبي كان يبتغي أن يحولني إلى حيوان لا يفقه من الدنيا إلا أوامره. جعلني راعياً لأبقاره، امضي النهار معها عند أطراف الأهوار، أعلفها واحميها من هجمات خنازير وحشية وذئاب تزحف من الصحراء المجاورة. كنت أزور سراً أحد الكهان ليعلمني رموز كتابتنا وثقافة اسلافنا. كنت أصنع ألواحاً من طين أحمر لأخط عليها حكايات هدهدة امي، وأزينها برسوم عوالم بعيدة زارها جدي بحثاً عن شباب وخلود. عندما يهدني الجزع، كنت أخرج سراً تمثال إلهتنا الحنون (عشتار)، أسندها إلى سيقان قصب البردي، وأسبح دموع الخلاص. يختلط دعائي بخوار أبقار واصوات طيور وحشرات وهفيف ريح، فتستريح روحي إذ أشعر بالكون يشاركني آلامي ورجائي.

* * *

ذات ليلة كنت على حالي وحيدا اصلي لآلهتي تحت ضياء قمر متسلل عبر سعفات نخيلات متفرقة في مقبرة القرية. تجمدت عروقي وارتعشت خوفاً وأنا أتنتصت لأصوات غريبة تصدر من طرف المقبرة. أصوات مبهمة كأنها توحى بدينونة موت وانبثاق حياة، بألم وشهوة. شرعت أقترب من مصدر الصوت تابعا هاجس فرح كان يحدثني عن قدوم (عشتار) بعد ان استجابت لصلواتي واشفقت علي من عذاباتي.

عندما اقتربت لم اجد ما تمنيت. كان شيئا آخر لم يخطر ببالي! من بين شواهد القبور رأيت ابي الهرم مستندا بجلسته الى قبر جدي. كانت في أحضانه امرأة تفوق في حسنها وبهائها أعظم آلهات الجمال. أبي الأسمر بذراعين محروقين بشمس وسفالات عمر وأقدار تجارة، كان يحتضن ذلك الملاك. تخيلتها فراشة في أحضان عنكبوت. كانت أصوات حبهما تأتيني ناشزة مبهمة: فحيح شهوتها مفعم بألم وشكوى، وفحيحه يشبه همهمة ذنب يتمطق بلحم فريسته.

طفقت فيضانات نقمة وغيره تجتاح روحي كأني أشهد عملية اغتصاب حقي وشرفي. راح جسدي يلتصق بشدة بالأرض وانا متمدد على بطني. أسناني كانت تعض حجارة قبور، وانفاسي معفرة بتراب وأصابعي راحت تمزق جلد الأرض وتغور بعيدا فيها. عيناى التصقتا بمشهد فجور يرتكب امامي. استحال كيائي إلى كتلة من لهب مركزها أسفل سرتي. انتشرت في بدني وفي الأرض قشعريرة غريبة من لذة واندھاش.. ارتعاشة زمن طويل. طاف جسمي على موجات متلاطمة ما عرفتها من قبل!

في لحظات خُمود أصواتهما خمدتُ انا فجأة وانسبتُ في غيبوبة من الراحة. بقيت لزمن مستلقياً على ظهري انظر إلى السماء وأنا في حالة من النشوة جعلتني أستهجن فكرة أن ثمة شيئاً في الحياة يستحق الغضب او الحزن. كنت حينئذ في صلح مطلق مع الوجود. بدت لي النجوم شموع زفاف القمر على نجمة الزهرة. عند بزوغ خطوط الشفق بين جذوع النخيل وشواهد القبور، صحت من شبه إغفائي على أصوات قبلات وهمسات. رأيت أبي يخرج قارورة من متاعه. وضعها أمامه على الأرض ثم احتضن المرأة وقبلها بنهم وقلق. وإذا بها فجأة قد ذابت وتلاشت، ثم أغلق أبي القارورة وحشرها في متاعه ورحل.

* * *

منذ تلك الليلة لم أعرف الراحة. كل لحظة تمر أحسها خسارة محسوبة من عمري. هكذا فجأة اكتشفت أنني رجل أملك من القوى المكبوتة ما يؤهلني ان أتخلص، ليس من سطوة أبي وحده، إنما حتى من اعظم الطغاة. لم أكف عن مراقبة أبي في ليلاه الماجنة عند قبر جدي. وكلما رأيت (امرأة القارورة) في أحضانه، تفاقمت قوى حقد ودمار في اعماقي.

ذات ليلة قدحت في روحي شرارات الشر. بينما كانا يتضاجعان على قبر جدي، هبت ريح الغرب جالبة معها زمهرير الصحراء وذرات حمراء مشبعة بشهوة انعتاق وانتقام. انطلق عواء ذئاب جائعة في أعماقي، وامتزج بصفير الريح. في اللحظة التي نهضت فيها من بين القبور والخنجر الكلداني يزار في يدي، رأيت أبي من دون أن يراني، يترك القارورة على الأرض وينزوي بعيداً عن قبر جدي. كانت لحظات حاسمة ارتعشت فيها أوصالي. بات القتل بالنسبة إلي حينئذ كلذة مخبولة وطائشة. كدت اتجه إليه وأطعنه في قلبه، لكن رويتي للقارورة خلبت لبي وجعلتني أرتمي عليها وانهبها.

من دون تفكير ركضت.. مع عصف الريح ركضت وركضت حتى وجدت نفسي في حوشنا. الخنجر ما زال يعوي وأنا اريد ان اقتل. دون تردد وثبت على الأبقار. رحمت اطعنها وأبقر بطونها بوحشية لا مثيل لها، وأقطع مصارينها بأسناني.

كنت بحالة فقدان تؤهلني لقتل اي إنسان يواجهني. شيء وحيد كنت اعني أهميته هو القارورة في عبي. روحي كمنت فيها.. بل تاريخي وحياتي وعواظي تكومت فيها. كنت أتذوق دماء الأبقار الحارة. أتناولها بين كفي، أشربها وأغسل رأسي بها حتى صرت كتلة تراب معجون بدم.

وجدتني أتجه إلى جرف النهر. رميت نفسي في قارب أبي (المشحوف). إنحدر بي في المجرى الكبير المتفرع من نهر دجلة. كنت أحتضن القارورة وأقبلها. كل صرخة كنت أحسها تهدم جداراً من سجن ماضي وتفتح امامي مستقبل حرية وانتقام.

* * *

عندما هدأت العاصفة وانزاح الظلام والغبار، انبلج فجر ذهبي، غمر بألق شفاف سطح المجرى وبساتين النخيل المحيطة. كانت تأتيني من بعيد أصوات فلاحين ورعاة وحيوانات. ركنت المشحوف بين الأحرار، وهبطت محتضنا القارورة. اختبأت تحت ظلال نخيل وكتل قصب، وفتحتها. لم تسألني عندما خرجت، ولم تتح لي مجال الكلام. حدقت إليّ بحزن وعجب كأم تشفق على حماقات ولدها. أمسكتني من ذراعي وقادنتني إلى الماء. خلعت عني ثوبي الممزق الملطخ، وراحت تغسل عني أقذار انتفاضتي. كنت أشاهد خلال عينيها مياه النهر تنأى بعيداً ملوثة بتاريخ ضعفي وخنوعي.

بقيت بصحبة معشوقتي أتابع بمشحوفي مجرى النهر. لأيام وليال كنت اعتاش على سرقة المزارع والبساتين وبيوت الفلاحين المنتثرة على الشاطئ. رغم أن عمري آنذاك لم يتجاوز الأثني عشر عاماً إلا أنني صرت رجلاً بالغاً بفضل ما منحني إياه (امرأة القارورة) من مشاعر فحولة وثقة بالذات.

عندما وصلت إلى شواطئ الخليج اشتغلت بحاراً في سفن تمخر عباباً ممتدة حتى محيط الظلمات. الأعوام وتجارب الزمن وأحقاد الماضي التي ما انفكت تفور كالبركان في روحي، صيرتني قرصاناً همجياً. كنت أجول البحار بحثاً عن سفن التجار لأستولي عليها وأفتك بناسها. لم يكن لدي أي صديق في حياتي غير (امرأة القادورة). البشر كانوا بالنسبة إليّ واحداً من اثنين: إما عدو أخشاه واحاربه، وإما تابع حقير أسحقه لأفرض عليه مشيئتي. كانت (هاجر) مرفني الوحيد الذي يرسو فيه جسدي وروحي من دون سلاح ولا مشاعر عداً ولا خوف أو احتقار. كانت هي سلامي الأبدي المختبئ في أعماق قارورتي.

حتى أتى يوم تغيرت فيه حياتي من جديد. امرأة أرضية أتتني كزخة مطر اطفأت نيران حقدني وانبتت محلها زهور حب برية. ذات يوم، هاجمنا سفينة قرطاجية تانهة قرب شواطئ إفريقيا الشمالية. لم تواجهنا صعوبة بالاستيلاء على السفينة لأن جميع بحارتها وركابها كان الجوع والعطش قد أنهكهم بعد ان أمضوا الأشهر تائهين في البحر الكبير. أعطيت أوامري بجمع الغنائم في جهة والأسرى في جهة أخرى. كنت واقفاً عند شرفة القيادة، أراقب عملية تقسيم الغنائم والتخلص من الأسرى الضعفاء برميهام إلى البحر. كانت هناك كومتان متجاورتان، واحدة من ذهب وفضة وأحجار كريمة، وأخرى من رجال ونساء منهوكين من جوع وعطش وأقذار.

كان صمت البحر قد فرض هيمنته حتى على قلوب القراصنة الصاخبة بشهوة السلب والقتل. الجميع كانوا ينتظرون بتلهف أوامري. فجأة، وثب احد البحارة الذي أسكره العرق الكنعاني، ارتدى على فتاة جاثمة في مقدمة الأسرى. أمسكها من شعرها واستل خنجره وهم أن يذبحها وهو يطلق زئيراً منتشياً بالنصر. عندما ارتفع وجه الفتاة إلى السماء، كنت مطلاً عليها من فوق. للحظات التفت عيناها بعيني.. كانتا صافيتين مفعمتين بزرقه سماء وسكون بحر. ما رأيت في عمري وجهاً بريئاً مطمئناً كهذا. بسطت أمامي سيماء طفولية كتلميذة تبحث عن رضى في عيني أستاذها في أثناء درس الموت. خلبتني طمأنينة الأطفال هذه. مثل عاصفة، اجتاحت

مخيلتي صور الماضي : ابتسامة امي وخنجر أبي واعوام تشردي وملاح ضحايي. أطلقت عوائي وسحبت مطواتي وقذفتها بلهفة مشرف على السقوط. في اللحظة التي مس فيها حد الخنجر عنق الفتاة، اخترق نصل مطواتي إذن القرصان. ارتعد كجرذ مصلي وسقط أرضاً. اغضت الفتاة عينيها، وانتشر على وجهها رذاذ دم القرصان.

* * *

منذ ذلك اليوم، تغيرت حياتي من جديد. كانت الفتاة ابنة احد أمراء قرطاجة. كانت عائدة من زيارة اعمامها في صور ويافا ودمشق. هجمات السفن الرومانية وتهديداتها جعلت سفينتهم تضيع الطريق وتهيم في البحر. اسيرتي هذه غلبتني. اسمها (عازار) وهي حقاً عذراء روحاً وجسداً. نفخت علي بأنسام اطمئنانها، وبردت فيّ رمضاء قلقي، وجعلتني اهجر بلا رجعة حياتي السابقة. صارت لي حزمة نور تشق غيوم العنف المترامية في سماء حياتي. تشبثت بها كدخيل في حضرة قديس مخلص.

شددت الرحال معها تاركاً ورائي قراصنتي وتاريخي الأسود. لم أصطحب معي غير قارورتي، حيث تستقر (هاجر) لتظل في عيني رمز تاريخ أشتيه وأحن إليه وأمارس عليه سطوتي المطلقة. من أجل أن أنال رضى عائلتها وابيها الأمير، تطوعت في جيش قرطاجة. حصلت على حقوق المواطنة وأصبحت ضابطاً في أسطول فرقة بحرية مكلفة بحماية الشواطئ من هجمات أسطول القائد الروماني (شيببيو). آنذاك كان الزعيم القرطاجي (هانيبعل) منذ خمسة عشر عاماً وهو يشن حرباً طاحنة مستمرة لاجتياح روما وكسر شوكة امبراطورية طامحة إلى التوسع.

علاقتي بـ (سيدة القارورة) ما طرأ عليها أي تغيير، ظلت عشيقتي السرية ورفيقتي في خفايا شهواتي وأنيستي في سفرياتي وأيام ابتعادي عن حبيبتي (عازار). قرطاجة راقت لي. كنت اعيش فيها بسلام وبحبوحة مع أميرتي. نمضي ساعات العصر في حديقة قصر أبيها المطلة على سواحل البحر الكبير. زرقة الماء والسماء وخضرة بساتين الزيتون المنعكسة في عينيها ظلت تزيد من الطمأنينة في روحي، وتعوضني عن أعوام قحط ودم وسط اهورا طفولتي وبحار شبابي.

* * *

الزمن ما شاء ترك ناري تخمد تماماً. هبت ريح الحرب، وتأججت من جديد مع المخاطر التي أخذت تحيق بمدينة قرطاجة. لم يدم زمن تنعمي بالحُب والغنى والاستقرار. ودعت أميرتي والتحققت بحملة عسكرية بقيادة (آزروبعل) الشقيق الأصغر لـ(هانيبعل). رحلنا معه إلى أرض الرومان لنجدة شقيقه الذي ضعفت جيوشه بعد خمسة عشر عاماً من المتاهات الحربية في أرض الأعداء.

لكن حملتنا انتهت بكارثة. نجحنا في أرض الإسبان واجتزنا جبال (البرانس) ونهر (الرون) ثم جبال (الألب) حتى وصلنا إلى سهل شمال إيطاليا. لم يبق إلا القليل لكي نبلغ هدفنا بالالتحاق بجيش قائدنا الأكبر. لكن (أزروبل) لم يتحل بحنكة أخيه وبعد نظره. أضعنا أياماً ورجالا في افتعال حروب هنا وهناك، واكتساح قرى عزلاء وتطويق مدن مسالمة من دوق اية نتيجة معقولة. تأخرنا عن غايتنا ومنحنا الوقت لاعدائنا ليجمعوا قواتهم. عند نهر (ميتور)، ذات صباح باكر، استيقظنا على أصوات أبواق حشود الرومان بقيادة (نيرون). وقعنا في كمامشة جيشين كاسرين. عندما حل المساء كان جيشنا قد أبيض، وقائدنا قد قطع رأسه ليرسله (نيرون) إنذارا إلى (هانيبعل).

استطعت ان أنجو بحياتي بعد أن نهشت قدمي اليسرى طعنة رمح روماني. اختبأت في غابات منتشرة على ضفاف النهر. التجأت إلى قبيلة من الرعاة السلتيين الهاربين إلى الشمال بعيداً عن سوح الحروب. شاء حسن طالعي أن تكون هذه القبيلة من الناقمين على الرومان. لقد آووني وساعدوني على قطع قدمي الجريحة بفأس محمية.

حتى في أشد أوقات آلامي وإنهاكي كنت أكافح غيبوبيتي مفكراً بقارورتي التي اخفيتها في طرف الغابة. كانت أحلامي زاخرة بصورة ماض دام وبحث أبدي عن انعتاق وسلام. تارة يأتيني طيف أميرتي (عازار) متوهجاً بخضرة زيتون وزرقة بحر، وتارة يأتيني طيف (هاجر) ليحميني من ريح وأمواج وحشود سحب.

* * *

ما أن استطعت أن أعرج على قدمي حتى تسللت إلى الأحراش بحثاً عن قارورتي. كانت هناك شمس مائلة إلى الغروب وخطوط أشعة نحاسية تلون اغصان وتسكب بريقاً شهوانياً على الأوراق. في كل مكان كانت هناك بقايا جثة جندي قرطاجي. امتزجت عفونة موت بروائح زهور أقحوان وأشجار أرز وزيزفون. لأول مرة في حياتي أحس بمثل هذا الرعب والمقت أمام مشهد الموت. كنت أرعد والهت كذئب جريح يفتش عن منفذ في طوق حصار. رحت أقفز على أطراف الأربعة، أشق أحراشاً بأصابعي وأشم حشائش بحثاً عن قارورتي. خيل إلي ان خطوط الأشعة قد استحالت إلى رماح نحاسية محمية لتخترق بدني من كل مكان. وجدت قارورتي منزوية بين حشائش مدماة. اخرجت معشوقتي وارتميت على صدرها لأذرف دموع هزيمتي وحيرتي. كنت بحاجة همجية إلى ان أدخل فيها.. أحتمي بجدار صدرها من الرماح. مارسنا الحب بين بقايا جثث الرفاق. عبر كل ارتعاشة من جسدينا كنت اشعر بحمم مدمرة تنقذ لتحرق مغارات روعي المسكونة بوحوش ما قبل التاريخ.

بقيت لاجئاً عند قبيلة الرعاة خلال أعوام. كنت أتنقل معهم بين غابات واودية وأنهار وجبال. كنا نفتش عن ارض سلام تأوينا بعيدا عن حروب الرومان وغزوات القبائل الجائعة. توجهنا إلى الشمال وعبرنا جبال

الألب. رحنا نمضي على ضفاف نهر (الرون)، نتبع صعوداً مياهه الهابطة جنوباً نحو البحر الكبير. رغم الثلوج وأوجاع الترحال وهجمات الخصوم، إلا أن قبيلتي لم تتوقف عن مسيرتها، مدفوعة بعزم جبار لا ينضب : الرغبة في الخلاص.

أما أنا ف (هاجر) كانت خلاصي وملجأى الخفي كلما ورم الحنين قلبي. في منامي كنت أعيش كوابيس أوطاني القديمة: الأهوار موطن أسلافي وعذابات طفولتي. البحر موطن عنفواني وثورة فتوتي وشبابي. قرطاجة موطن حُبي وسلام روحي. تعلمت لغة قبيلتي السلتية وعاداتها، ورافقت رجالها في مصاعبهم ونزواتهم، وعاشرت نساءها خفية وعلانية.

ذات يوم كاد ساحر القبيلة أن يحقني بغضبه، لولا اني أذعنت ووافقت على أن اتزوج ابنته بعد أن حملت مني. كانت شابة شهباء، حمراء الشعر، مُسترجلة، يسمونها (كارل) بدلا من (كارلا). شكلها العملاقي وحركاتها الرجولية توحى بجفاف وخشونة غربيين عن طباع الأنثى. مع الزمن اكتشفت حقيقتها. كانت تتعمد هذا المظهر لتلبي رغبة أبيها الذي لم يحقق حلمه بإنجاب ولد. علاقتنا بدأت عندما شاركت هي أباهما في قطع قدمي وأشرفت على مداواة جراحي. انبثقت منها فجأة ينابيع مشاعر رقراقة وملذات انثوية مختفية وراء مظهرها الذكوري. عندما حملت مني، رضيت ان ترتدي ثياب النساء، وتركت شعرها يطول. وكانت تجيبني عندما أناديها (كارلا). حتى النمش الأحمر الذي يغطي وجهها وانحاء جسدها، صار يضفي حرارة على لحظات لذتنا. منحتني من الحب ما جعلني أتناسى الماضي واندمج يوماً بعد يوم في حياة القبيلة. أنا بدوري، لم أقصر عن منحها اعظم الحب، لكن مشاعر قلبي كانت بين حين وآخر تفيض وتغرق غيرها من النساء. اكتشفت أن قلبي كان مثل مدينة، لا يمكن لامرأة أن تكفيها، لعلها تستطيع احتلال اكبر القصور والاستيلاء على معظم الثروات، إلا أنها يقينا ستنسى بضعة مساكن شاعرة.

تعلمت من ساحر قبيلتي بساطة الحياة والوفاء وعبادة الطبيعة والتمسك بالأمل حتى لو كان وهمياً. حاولت أن انقل إليه معارفي التي اكتسبتها من ماضي. حدثته عن آلهة (بابل ونيوى) واسرار عبادة النجوم ومكتشفات الفلك وأبراج البشر. علمته ابجدية الفينقيين وثقافتهم. حدثتهم عن علوم المصريين وفلسفة الاغريق وقوانين الرومان. والأهم من كل هذا، اني، من خلال (كارلا) علمت نسانهم استخدام مساحيق التجميل اليمانية وصنعها من الصخور والأشجار والزهور. يوم ولدت (كارلا) لي ابنا، عم الفرحة الجميع، وكانت مناسبة لأن تتبرج النسوة ببراعة وسخرية.

ارتفعت مكاتي بين أفراد القبيلة، لأنني أولاً منحتهم ذكراً سيدعم قواهم، وثانياً لأن ابني هو حفيد ساحر القبيلة، وسيرث حتماً موهبة جده ومعارفه وقدراته السحرية. امتناناً منهم وافقوا على أن اختار بحريتي اسم ابني. عندما أسميته (آدم)، استغربوا وضحكوا، لكنهم اخيراً هزوا رؤوسهم اقتناعاً.

انتهى بنا المطاف أن وجدنا أرضاً خالية آمنة عند طرف الضفة الغربية لبحيرة (ليمان). حططنا الرحال بعيداً عن قرية يقال لها (ففه). كان ابني ينمو في أحضان جده، وهو يبخره ويقرأ عليه تعاويذه ويبصق في فمه لينقل إليه معارفه. كنت سعيداً إلى درجة لا توصف وأنا أرى ملامحه تتضح وتأخذ هيئة حنطية تميزه عن باقي أبناء القبيلة. فشلت في أن أقنعهم بالموافقة على ختانه. رغم جميع ايماني الغليظة لم يصدقوا بوجود قوم عقال على الأرض يمكن أن يوافقوا على قص لحمة من ولدهم.

* * *

الزمن، من جديد، لم يمهلني لأظل أباً لهذا الطفل وزوجاً لهذه المرأة وابناً لهذه القبيلة. كنت ذات ليلة في خلوتي مع (هاجر) بين صخور عند سفح منحدر حتى ضفاف البحيرة. في هذه الليلة جلبت معي طفلي لتمضي معه (هاجر) بعض الوقت لرغبتها في ذلك. كنت أتمعن في خطوط الشفق المتسلل وراء الجبل. فكرت بوعيد الساحر وتحذيره من غضب الجبل. منذ أسبوع وهو ينذر القبيلة من كارثة محدقة. لم نوف بنذرنا المعتاد للجبل. شح الموسم ومرض الحيوانات منعانا من التضحية بقرباننا السنوي.

فجأة ارتج الكون بضجيج وحشي جبار، واهتزت الأرض، حتى خلت أن القيامة قد قامت. كانت كتل صخرية عملاقة تتساقط من أعلى الجبل تجتاح الوادي وتحيله إلى كتلة هائلة من غبار ممزوج بصرخات ألم واحتضار. لولا حماية الصخرة العملاقة التي كنا مستلقين تحتها، مع (هاجر) وطفلي، لانسحقنا جميعاً قبل الآخرين.

بعد دقائق معدودة هدأ الضجيج وانقطع تساقط الصخور. عندما نهضت ونظرت إلى الشاطئ الأخضر الذي تركت فيه قبيلتي منذ ساعة، لم أشاهد غير الصخور. لقد اختفى رجال قبيلتي ونساؤهم واطفالهم في غفوة أبدية بين حيوانات وأعشاب وشجيرات زيزفون. صخور.. لا شيء غير الصخور! مئات الأجساد والأحلام والذكريات فُبرت في دقائق تحت الصخور. ها هو جزء آخر من ماضي يتبدد تحت احجار جبل أحرق، غضب لأنه لم ينل قربانه.

كيف اصف لكم مقدار الجزع الذي أصابني والخيبة التي هدت قواي.. استفاق ذئبي من غفوته وشرع في عواء حزين، جعل الذئاب تحوم حول الصخور بحثاً عن بقايا جنث. ارتميت على الصخور من أجل التهامها وإخراج موتاي. لولا تعلقي بولدي ووجود (هاجر) معي لكنت لئيت نداء حاجة ماسة إلى نسيان ازلي.

بعد سبعة أيام أمضيتها في ماتم صامت أمام قبر قبيلتي وزوجتي، كنت جالساً على ضفاف البحيرة، رجلي المبتورة تستبرد أوجاعها في الماء. كنت وحيداً انظر إلى ولدي الذي يغفو بجانبه بعد أن اعتنت به (هاجر) وعادت إلى قارورتها. شمس حزينان كانت تستفيق متثابة من وراء جبال الألب الشامخة على الضفة المقابلة، تأخذ حمامها الصباحي في المياه الذهبية الزرقاء. ريح رقيقة هبت من الجنوب، بثت رعشة خفيفة على سطح

الماء، وجلبت معها أسراباً من طيور سنونو محملة برمال صحارى وعفونة أهوار وبحار. خلال حياتي كلها لم اشعر مرة هكذا اني وحيد. لم يبق لي غير حلم بعودة مستحيلة إلى الأوطان. استعرت في نار الحنين إلى (عازار) وقرطاجة.. إلى الخليج وسفينتي وحياة القرصان.. إلى قرיתי والأهوار وإخوتي الصغار. نظرت إلى الطفل وفكرت بالمصير الذي ينتظره في صحبتي. إنني غريب في أرض حتى أصحابها غرباء عنها. جرمان وهلفت وغاليون، قبائل جانعة تتقاتل من أجل قطعة أرض تستقر عليها، رومان وأتروسك وقرطاجيون، جيوش مدججة بحضارة تتحارب من أجل سيطرة ونفوذ.

لم أعد ارى من الطبيعة سوى غضبها وشحها وتلوجها وطواعينها والذئاب التي هيجتها روائح الموت. قمت متوكناً على قدمي الخشبية محتضناً قارورتي وولدي مع اسماله، وتوجهت إلى قارب صغير. استلقيت ووجهي قبالة سماء تلمع بزرقه صافية بينما قاربنا ينساب بنا مع ريح الجنوب ليقودنا اينما يشاء. عندما فتحت عيني، كنت وحيداً على الشاطيء، وقد اختفى (آدم) وقارورته. تركاني وحيداً في صباح احد ربيعي وقد غادرت الغيوم السماء وعادت طيور البجع تتهاذى جماعات جماعات ولم يزل زوجي الاشجار يطلان علي وقد توهجت خضرت اوراقهما بحمرة الشفق النحاسية. وعندما نهضت أحسست بالآلام غير طبيعية في قدمي اليسرى جعلتني اعرج على الرصيف.